اسرحدّون

ملك أشور او ثمرة الخيانة

للروائي الروسي تولستوى

غزا آسرحدّون ملك أشور ديار الملك ليلي ، ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة للنيران واستأسر سكانها جميعهم وساقهم مصفدين في الاغلال،وأطاح رؤوس المقاتلة واهلك بعض الزعماء وشلّ بالباقين افظع تمثيل ، وحبس الملك ليلي نفسه في قفص

وبينما كان الملك آسرحدّون مستلقياً في فراشه وهو يفكر في ابتداع طريقة لقتل الملك ليلي سمع فجاءة زكزاكاً على مقربة منه ، ولما فتح عينيه أبصر شيخاً طاعناً في السن ذا لحية بيضاء مقدرة تشع عياء وداعة وحناناً

وقال لهُ الشيخ « أنت تفكر في قتل الملك ليلي »

فاجابهُ آسرحدون « نعم أريد ذلك ولكني لم اهتد بعد الى طريقة لتنفيذه »

فقال له الشيخ « ولكن أنت تقتل ليلي »

فاجابهُ الملك « كلاّ هذا غير حق ، إن ليلي هو ليلي وأنا أنا »

فقال له الشيخ « أنت وليلي شخص واحد ، وانما انت تتوهم إنك لست ليلي وان ليلي ليس اياك »

فقال الملك آسرحدّون « ماذا تعني بذلك . هأنذا مستلق على فراشي الوثير وحولي من رجالي والموالي عبيد خاضعون واماء طائعات ، وغداً سأولم وليمة لاصدقائي كما فعلت اليوم في حين أن ليلي محبوس كالعصفور في القفص،وغداً سينخزق ويظل في وصب مندلق اللسان حتى تزهق روحه ويطرح للكلاب توسع جسده تمزيقاً »

فقال لهُ الشيخ « ليس في متناول قدرتك ان تقتل بحياته »

« ولكن ما حال الاربعة عشر الفاً من جنوده الذين افنيتهم ورفعت من رؤسهم تلالاً ،

وأني ما ازال حيًّا ولكنهم الآن لا وجود لهم ، ألا ترى في ذلك دليلاً واضحاً على أني استطيع ان أهب الاعمار وأمحو الحياة ؟

« ولكن من أين جاءك انهم غير موجودين » ؟

« لاني لا أراهم،وفوق ذلك انهم قد تعذبوا وذاقوا الغصص والآلام ولكني لم اذق عذاباً ولم أكابد ألماً ، ولقد كان ذلك نقمة عليهم ونعمة لي »

« هذا يبدو لك كذلك ، وانت انما عذبت نفسك ولم تعذبهم

فقال الملك « اني لا أفهم حديثك »

« أتريد ان تفهم »

« نعم أريد ذلك »

فقال لهُ الشيخ « اذن تقدم هنا » وأشار الى حوض متسع متأق بالماء

فنهض الملك ودنا من الحوض

« اخلع ثيابك وادخل الحوض »

ففعل آسرحدّون ما أمره به الشيخ

وقال الشيخ وهو يملأ الجرة ماء « عندما أصب عليك الماء غطّس رأسك » وأمال الشيخ الجرة على رأس الملك وأحنى الملك رأسه حتى صار تحت الماء

***

أخذ الملك آسرحدون بعد ذلك يشعر بأنهُ أصبح شخصاً آخر غير آسرحدون ، ولما أحسَّ بأنهُ ذلك الشخص الآخر رأى نفسه مستلقياً على فراش فاخر والى جانبه امرأة حسناء لم يكن قد رآها من قبل وإنما أدرك انها زوجته ، وهبت المرأة وقالت لهُ

« زوجي العزيز ليلي ! لقد انهكك مجهود الامس وقد نمت أكثر من المعتاد وقد حرصت على راحتك ولم أيقظك ، ولكن الامراء ينتظرونك الآن في البهو ، فالبس ثيابك واخرج لهم »

ففهم آسرحدون من هذه الكلمات انهُ ليلي ولم يستغرب ذلك وانما عجب كيف لم يدر ذلك في خلده من قبل ، ونهض من فراشه وارتدى ملابسه وخرج الى البهو حيث كان الامراء ينتظرونه

وحيَّا الامراء ملكهم ليلي وألصقوا جباههم بالارض ثم رفعوا رؤوسهم بعد ان ألقى عليهم كلمة ، وجلسوا أمامه وشرع أكبر الامراء سنًّا يتكلم قائلاً انهُ أصبح غير ميسور احتمال اهانات الملك آسرحدّون وانهُ يلزم ان تعلن عليه الحرب ، ولكن ليلي خالفهم وأمر بإيفاد الرسل للاحتجاج على أعمال الملك آسرحدّون وصرف الامراء من حضرته ، واختار بعد ذلك

جماعة من الاعيان ليكونوا سفراء ولقنهم ما يقولونهُ للملك آسرحدّون ، ولما أنجز آسرحدّون عمله — وكان يشعر — بأنهُ ليلي — امتطى جواده وانطلق ليصطاد الحمر الوحشية ، وأصابهُ التوتيق فقتل بيديه حمارين وحشيين ، ولما عاد ادراجه الى قصره أولم وليمة لاصدقائه وشاهد رقص الجواري ، وفي اليوم التالي ذهب الى البلاط حيث كان ينتظره متقدمو المرافض واصحاب الدعاوى والاسرى المجلوبون للمحاكمة ، وهناك فصل كمادته في المسائل المعروضة عليه ، ولما اتم عمله وقام بواجبه اقتعد صهوة جواده وتوجه للصيد وكان رياضته المحبوبة ، واسعفه الحظ فصاد ليوة مجوزاً معها شبلاها ، وبعد الصيد اولم وليمة لاصدقائه وشاهد خلالها الرقص وسمع عزف الموسيقى ، وقضى ليلتهُ مع الزوجة التي يحبها

وهكذا كان وقته مقسماً بين واجباته الملكية والمتع والمسرات ، وقضى اياماً واسابيع ينتظر عودة رسله الذين اوفدهم الى الملك آسرحدّون الذي كان يومئذ ، ولم تعد الرسل الا بعد مضي شهر ورجعوا وقد جدعت انوفهم وصلمت آذانهم ، وامرهم الملك آسرحدّون ان يبلغوا الملك ليلي ان ما صنع بهم سيصنع بالملك ليلي نفسه اذا لم يبادر بارسال الجزية من الفضة والذهب وخشب السرو والحضور بنفسه ليقدم الطاعة للملك آسرحدّون

فجمع ليلي — آسرحدّون سابقاً — الامراء وشاورهم في الامر فاشاروا عليه جميعهم بان لا مناص من الحرب ومهاجمة الملك آسرحدّون قبل ان يغزوهم في عقر دارهم ، واقرهم الملك على ذلك وسار في طليعة الجيش وبدأ الجهاد ، وكان يركب كل يوم ليستعرض عزيمة رجاله ويثير حميتهم ، وفي اليوم الثامن من مسيره التقى جيشه وجيش الملك آسرحدّون في واد متسع يشقه نهر واستمر القتال واستبسل جيش الملك ليلي ، ولكن ليلي — الذي كان آسرحدّون سابقاً — رأى جيش العدو يزحف من سفوح الجبال في عدد النمل حتى غص به الوادي وتغلب على جيشه ، فطار في عربته الحربية الى بؤرة المعركة وانخن في العدو انخاناً وبطش بهم بطشاً ذريعاً ولكن جيش الملك آسرحدّون كان يفوق جيشه عدداً وشعر ليلي بانهُ قد جرح ووقع اسيراً وطوى تسعة ايام في سفر مع سائر الاسرى مكبلاً بالقيود وحوله جند آسرحدّون ، وفي اليوم العاشر دخل نينوى ووضع في قفص وكان لا يبالي الغلب ولا الم الجراح وانما كان يحز في نفسه عار الهزيمة والاحساس بالعجز ، ورأى أن كل ما يستطيعه في هذا المأزق هو ان يحرم عدوه سرور رؤية آلامه ولذا صمم على أن يحتمل صابراً كل ضروب التعذيب وصنوف الآلام وامضى في قفصه عشرين يوماً ينتظر الاعدام ، ورأى رجال حاشيته واصفياءه وأقاربه يقادون الى الموت وكانت صيحاتهم تخترق صماخ اذنه وكان أحيحهم يشق ثمه فبعضهم قطعت أيديهم وبترت ارجلهم ، والبعض سلخت جلودهم أحياء ، وقد احتمل رؤية ذلك دون

ان يظهر توجعاً او رثاء او تفزعاً ، ورأى زوجته وبجانبها قليه مقيدة بالسلاسل يقودها اثنان من الخصيان السود وعرف انها مسوقة الى الملك آسرحدّون واحتمل ذلك بلا تذمر. ولا تأفف، ولكن احد الجند الموكلين بحراسته قال له «انا مشفق عليك يا ليلي ، لقد كنت بالامس ملكاً فانظر ماذا صار اليه امرك ؟ ولما سمع ليلي هذه الكلمات تذكر ملكه الضائع فأمسك بتضبان القفص وضرب رأسهُ فيها محاولاً الانتحار ولكن لم تكن به قوة على القيام بذلك فأنَّ من الالم وغلبهُ اليأس وارتمى في اسفل القفص

وحضر اثنان من الجلادين وفتحا باب القفص وأخذا في تكتيفه وقاداه الى مكان الاعدام وكان مخضباً بالدماء ، ورأى ليلي خازوقاً يقطر منهُ الدم وقد انتزعت منهُ حيثة احد اصدقائه فعرف انهُ تهيأ لقتله ، ونزعوا ملابسه فهاله نحف جسمه الذي كان قويًّا جبلاً وحملهُ الجلادان وكانا على وشك وضعه فوق الخازوق

وفكر ليلي في الموت والدم ونسي التزامه ان يظل الى النهاية محتفظاً بهدوئه قائياً شجاعته وارتفع صوتهُ بالبكاء والنحيب والتمس الرحمة دون ان يصغي لشكاته أحد

ولكنهُ فكر اخيراً «هذا لا يمكن ان يكون ولا بد ان اكون في نوم عميق ولا بد ان يكون ما انا فيه حلم رهيب » وحاول اليقظة من النوم وما عتم ان استيقظ ولكنهُ لم يجد قصه آسرحدّون ولا الملك ليلي وانما وجد قصه نوعاً من الحيوان فعجب لذلك ، وكان اشد ما يثير عجبه هو انهُ كيف لم يعرف ذلك من قبل

***

كان يرعى في واد مشوشب ويزق الكلأ بأسنانه وأنيابه ويطرد الذباب بذنبه المسترخي وكان يمرح حوله جحش اشهب طويل الساقين منمر الظهر ثم انطلق يعدو الى آسرحدون ولكزه تحت بطنه بضه الناعم المستدق ملتمساً الضرع ، ولما اصابهُ اخذ يترشف منهُ ترشفاً متصلاً وأدرك آسرحدون انهُ أتان ولم يدهشهُ ذلك ولا احزنهُ بل سره ان يرى حياتهُ قامية سارية في ذريته ، ثم سمع حوله حفيفاً وأحس بسهم صارد نفذ حده المسنون من الجلد الى اللحم وشعر بألم مرمض ، ونزع آسرحدون — الذي كان في نفس الوقت أتاناً — الضرع من فم الجحش وارخى اذنيه وانطلق يعدو الى العانة التي ضلَّ منها يتلوه الجحش ، ولما قاربا العانة التي أجفلت أصاب سهم آخر رقبة الجحش وأصماه مخترقاً الجلد الى اللحم فزحر زحيراً مؤلماً وأقعى على ركبتيه ولم يستطع آسرحدون ان يتركهُ وظلَّ واقفاً الى جانبه ونهض الجحش مترنحاً على سيقانه المزيلة وسقط من الاعياء ووثب اليه الرجل واحتزَّ رأسه

ففكر آسرحدون وغمغم لنفسه « هذا لا يمكن ان يكون لا بدّ ان أكون في حلم وبذل مجهوداً ليستيقظ ويفيق من حلمه حقيقة اني لست ليلي ولست الحمار الوحش ولكني آسرحدون »

وصاح ورفع في نفس الوقت رأسه من الحوض وكان الرجل العجوز ما يزال واقفاً الى جانبه يصب على رأسه آخر قطرة من الجرة

فقال آسرحدون « لقد تألمت كثيراً واحسبني قضيت في تلك الآلام ردحاً من الزمن » ؟

فقال لهُ الشيخ « كلاّ لم يطل عهدك بالالم لقد غمست رأسك في الماء ورفعتهُ والنظر الى الجرة تَرَ بها بقية الماء فهل تدري الآن » ؟

فلم يحر آسرحدون جواباً ونظر الى الشيخ نظرة ملؤها الرعب واسترسل الرجل العجوز يقول « أتدري الآن ان ليلي هو أنت وان الخنود الذين أعدمتهم هم أنت ؟ وليس الجنود فحسب وانما الحيوانات التي ذبحتها وانت تصيد ونهشت لحمها هي كذلك انت ، ولقد جرى في وهمك ان الحياة مقصورة عليك وحدك ولكي رفعت عن بصيرتك حجاب الوهم وحملتك تدرك انك باساءتك الى الغير انما تسيء الى نفسك ، والحياة واحدة في الجميع وحياتك جزء من نفس هذه الحياة العامة ، وتستطيع في ذلك الجزء من الحياة الممنوح لك ان تجعل الحياة احسن او اسوأ وتسيها او تنقصها ، وتستطيع ان تسمو بالحياة في نفسك وان تحطم الحواجز التي تفصل حياتك عن حياة الغير ، واذا احببت الغير ما تحب لنفسك واعتبرتهم بمثلك زاد نصيبك من الحياة ، وأنت تنقص حياتك اذا حاولت ان تزيدها على حساب الغير ، وتحطم حياة الغير من وراء طاقتك ، وحياة من سفكت دماءهم ومثلت بهم قد اختفت عن ناظريك ولكنها لم تعدم ، ولقد توهمت انك تطيل حياتك وتختزل حياتهم ولكن هذا ليس في وسعك ، والحياة لا تعرف الزمان ولا المكان ، وحياة لحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة الكائنات جميعها خفيها وظاهرها متساوية متعادلة ، ومحو الحياة او تبديلها غير ممكن لان الحياة هي الشيء الوحيد الموجود »

ولما نطق الشيخ بذلك اختفى

***

وفي صباح اليوم التالي اصدر الملك آسرحدّون اوامره باطلاق سراح الملك ليلي والاسرى جميعهم ومنع عقوبة الاعدام

وفي اليوم الثالث استدعى ابنه اشور بانيبال وسلمهُ صولجان الملك وانطلق الى الصحراء ليفكر فيما تعلمهُ ، واخذ يعد ذلك يسيح في المدن والقرى ويدعو الناس الى معرفة ان الحياة واحدة وانهم عندما يلحقون الاذى باحد انما يضرون انفسهم

***